

ثقافتان وحضارة واحدة

بقلم: أنور الجندبي
أستاذ بجامعة القاهرة

الحضارة في القرن الخامس عشر واستمرت الى اليوم وشملت العالم كله .

والحضارة هنا في تقديرنا هي الآلة والناكبة والعلوم التكنولوجية والاختراعات والكشوف والنذر والصورايخ عابرة القارات .

أما الثقافة فهي الفكر بقطاعاته المختلفة من لغة ودين وأدب وتاريخ وهنا تبرز أمامنا ثقافات متعددة لها طابعها المستقبل المختلف في كل ثقافة عن الثقافة الأخرى .

وإبرز ما يبدو هذا الاستقلال وإضحا في ثقافة الشرق والغرب . ثم في ثقافة الشرق تبدو ثقافة الفكر العربي الإسلامي لها طابعها المتميز عن ثقافة الهند والصين وإن اتسمت ثقافة الشرق بالطابع الروحي .

وتبدو ثقافات الغرب متميزة أيضا في ثقافة الغرب والثقافة الماركسية والثقافة اليهودية ولكل طابعه الواضح وإن اتسمت ثقافة الغرب بالطابع المادي .

ومن بين هذه الثقافات تبدو والثقافة العربية الإسلامية، ولها طابع مزدوج واضح الملامح في الارتباط بين الروح والمادة والعقل والضمير . ومن هنا يبدو أن هناك ثقافتين وحضارة واحدة :

(1) ثقافة الغرب (بشطريها الغربي والماركسي) وهما يقومان على أساس واضح وقاعدة واضحة هي : مادة الفكر .

(2) الثقافة العربية الإسلامية : وهي تقوم على قاعدة الربط بين المادة والروح ومن المعتقد أنه لا سبيل الى

يبدو أن هناك ضرورة حتمية لتحديد مفاهيم الالفاظ التي يجري تداولها كثيرا هذه الايام . أول هذه الالفاظ اختلاطا على الفهم «الثقافة والحضارة» فقد جرى استعمال كلمة «الحضارة بدلا من الثقافة» عند كثير من الكتاب على أساس انها أوسع مدى وأشمل . وأن الحضارة تضم الثقافة تحت جناحها . غير أن هذا جرى دون تعمق لمعنى اللفظين الذين يجب التفريق بين مفهومهما ومضمونهما حيث تبدو أهمية لا حد لها لتحديد معنى كل منهما توفيقا للخلط بينهما واستعمال كل منهما في مكانه .

ولا ضرورة لاعادة ما قاله عشرات الباحثين في التفرقة بين مفهوم الثقافة ومفهوم الحضارة . وغاية ما يجمع عليه المفكرون في هذا هو أن الثقافة فكر والحضارة مادة ومجتمع .

ولا شك ان الحضارة نتيجة الثقافة وإن كل حضارة بدأت فكرة أولا ثم انبثقت منها الحضارة غير أن تطور الحضارات على مدى العصور قد بلغ درجة من النضج البشري فلم تعد هناك حضارات منفصلة ترتبط بإقليم دون إقليم أو أمة دون أمة . وهذه الحضارة التي تعيشها اليوم ، لا يصح إطلاق لفظ «الحضارة الغربية» عليها وإنما هي حضارة بشرية انصبت في بوتقتها مختلف الحضارات والثقافات القديمة والمتوسطة كحضارات مصر وابل وأشور وحضارات اليونان والرومان والعرب والمسلمين ومن عصارة هذه الحضارات وتجاربها الواسعة المحددة المراحل قامت هذه

تغير الأساس أو القاعدة في كلتا الثقافتين ولا سبيل إلى حمل أي ثقافة منهما إلى تبنى قيم الثقافة الأخرى . ولكن هذا ليس معناه التوقف عن الأخذ والعطاء بين الثقافات إذ هي ظاهرة حتمية وناموس أزلي هذا الأخذ والعطاء الذي لم يفقد كلا الثقافتين طابعها الأصلي . وفي تجربتين قديمتين تم هذا في حرية كاملة وسلامة تامة في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) عند ما نقل الفكر العربي الإسلامي وترجم آثار اليونان والرومان واختار منها ما وافق مضامينه وقيمه الأساسية . وفي القرن الرابع عشر الميلادي نقل الفكر الغربي آثار العرب الفكرية (ومن بينها ترجمات اليونان والرومان) التي كان الفكر العربي الإسلامي قد لونها بطابعه وأضاف إليها وحذف منها وفي كلا التجربتين الضخمتين لم يفقد كل من الفكر الغربي أو الفكر العربي الإسلامي طابعه وشخصيته .

ثم قامت الحضارة على هذه الأساس التي صنعتها الحضارة الإسلامية التي كانت في أرض الغرب (الاندلس) وفيها بدأ الامتداد الحضاري متصلا ، أخذ العرب فكر اليونان والرومان ، مضافا إلى ثقافات الفرس والهنود والمصريين وانصهر كله في كيان واضح ثم أفضى إلى الغرب في عصر النهضة فصنع الحضارة البشرية الحديثة التي هي في الواقع «الإنسانية» التكوينية بحكم اشتراك الأمم والشعوب كلها في بناء أساسها وإن تحولت إلى طابع لا إنساني في توجيهها مرتبطة بالاستعمار والقيم الفكرية الغربية التي آمنت (I) بالمادية و (2) العنصرية و (3) تمييز الرجل الأبيض (4) استنزاف الشعوب والسيطرة عليها .

ومن هنا مضت « الحضارة » في طريق مفتوح وامتدت إلى العالم كله الذي يعيش الآن في آلتها وأدواتها ولكن هل امتدت الثقافة الغربية فسيطرت على الفكر الإنساني هذا هو ما نشك فيه فإن تجربة اليابان في أوائل هذا القرن كانت واضحة وضوحا تاما حيث اقتبست الحضارة ورفضت الثقافة الغربية وتجربة الهند أيضا التي مضت في طريق الحضارة وحافظت على قيمها الثقافية وطابعها الأساس .

ونحن في عالمنا «الشرق الإسلامي» وفي قلبه الأمة العربية نجد أن الغرب قد حاول خلال مرحلة الاحتلال

لأرضنا منذ 1830 تقريبا إلى 1954 (الجملاء عن المغرب) إلى 1956 (الجملاء عن مصر) 1962 الجملاء عن الجزائر أن يفرض هذا الفكر عن طريق المدرسة والصحيفة والكتاب والفيلم السينمائي .

وفي ظل قوى غاصبة وقوى حاكمة مؤيدة للاحتلال استطعنا أن نقاوم ولم نستسلم حتى إذا اتيح لنا أن نتحرر من الاحتلال العسكري والسياسي بدأت موجتها لهذه القوى تأخذ طابعا جديدا .

فقد خلف الاستعمار العسكري السياسي جيوشا في وطننا تمثل الغزو الفكري والثقافي وتحمل أمانتها للقيم الغربية وهي تحاول أن تخفي اليوم هدفها فتتألم في قوة متجمعة يمكن أن يطلق عليها « الشعبية الفكرية » وتجدد من بعض صحف العالم العربي ما يفسح لها إذاعة آرائها وبث سمومها .

وعندى أنه ما دمنا قد أخذنا بعض جوانب الحضارة أساسا مفروضة علينا في ظل النفوذ الأجنبي فقد استطعنا بعد التحرر من هذا النفوذ أن نأخذ الجانب الأقوى جانب الصناعة والآلة والذرة والصواريخ عابرة الفضاء هذا الجانب الذي حرص الغرب على أن يحول بيننا وبين بناء مصانمه أو القدرة على السيطرة عليه .

وكان هذا التحول في واقعنا بعد التخلص من النفوذ الأجنبي بالغ الأهمية والخطورة فلم تعد الحضارة ترف وملابس وعطور وأرضاء للفراخ وهو الجانب الوحيد الذي قدمه لنا الغرب من الحضارة خلال فترة احتلاله - وعندى أننا قد حققنا بذلك استكمال موقعنا من الحضارة التي هي ملك بشري مشاع .

بقي الأمر في مجال الفكر وهو ما لا سبيل إلى نقله أو اقتباسه وإنما يجري الأمر فيه وفق قانون أساسي وناموس أزلي هو أن لكل أمة مقوماتها الأساسية هذه المقومات التي تمثل قيم فكرها وملامح شخصيتها وهو ما لا سبيل إلى التخلص منه . وهو ما حاول الغرب خلال أكثر من مائة عام أن يقضي عليه دون جدوى .

هذا الأساس يجب أن يبرز ويتضح ويصبح أساسا معترفا به في مواجهة الفكر الإنساني أما النظرية التي كانت سارية ومعترفا بها وهي الأخذ بخير ما في القديم

وخير ما في الجديد فهنا تمويه شعوبى يراد به القضاء على مقوماتنا الاساسية او وضعها في كفة ميزان مع الجديد الوافد .

فاذا تحدد هذا الاساس واتضح امكن محاكمة (القديم والتراث) من ناحية (والوافد من فكر الامم الينا) من ناحية اخرى محاكمة واضحة للاخذ والرفض والابقاء والحذف .

ونحن فى هذا كله نؤمن بالفكر المفتوح المتطلع الى تراث الفكر الانسانى من الشرق والغرب والقديم والجديد . وقد كنا ولا نزال دائما قادرين على الحركة والتطور فى مرونة وحيوية . ولسنا نخشى ان يغلب فكر على مقوماتنا العطية لخير ما فى الفكر الانسانى اسما ، والتي عاشت عمرها كله لم تواجه ازمتات القلق والاضطراب او التجمد والتحجر او التضييع والانفراط .

الثقافتان بين الانصهار والامتصاص

ولا شك ان الفكر العربى الاسلامى والفكر العربى بينهما ابعاد واضحة واختلاف صريح فى اسس كل منهما . ليس معنى هذا ان التقارب والالتقاء لا يقع . فذلك امر مقبول لدى الفكر العربى الاسلامى المفتوح المتطور المرن القابل للثقافات الانسانية والفكر العالمى على اساس من قيمه ومقوماته . ولكن الامر العسير السدى لا نعتقد انه يقع هو امتزاج الفكر العربى الاسلامى والفكر العربى فى فكر واحد وينسى دعاة هذا الامتزاج انه لا بد له لكى يتحقق ان «يلدوب» احدهما فى الآخر وينصهر وهذا امر جد عسير .

ولقد جرت المحاولات لهذا ودعا دعاة التفريب والشعوبية من قبل الى ان نأخذ فكر الغرب وجاء من يدعو الى ان نأخذ فكر الماركسية وفشلت كلا الدعوتين وان أخذنا من الفكرين على نحو معين هو ما ندعوه « بالامتصاص » وهو غير النقل والاقتباس .

وليس من شك ان بين الفكرين والثقافتين فروقا ولن يلتقى الاثنان التقاء انصهار واذا به أما فى مجال الحضارة فان الامتزاج قائم وكائن وسبل النقل والاقتباس مفتوحة وجائزة .

وهذا هو الفرق بين الثقافة والحضارة فالفكر يقوم اساسا على مقومات ثابتة ، تتطور فروعها وتحرك ويدخلها التجديد والتحول والتغيير اما الحضارة فهى نسط من الحياة يمكن تغييره دون تحول اسس الفكر . فقد أخذ اليابان حضارة الغرب ولم يأخذ فكره وكذلك فعلت الهند .

ونحن لا نستطيع ان نأخذ لغة الغرب ولا مفاهيمه الروحية ولا تاريخه ولا مثله العليا ولا قيمه وانما نستطيع ان نأخذ حضارته فسى البيت والشارع وفى الماكينة والآلة والصناعة والحضارة والتكنيكية هى اننا نلبس عقائدنا وافكارنا وقيمنا اثوابا عصرية فنحن لا نستعمل الآن الجمل او الناقة او نأكل او نشرب او نقيم فى مساكننا او نتحرك على النحو الذى كان يتحرك عليه القدامى ، ولكننا حين نفكر لا بد ان نعرف ان لنا اسسا اصلية وقيما واضحة هى قاعدتنا فى تكوين شخصيتنا ومجتمعنا وفكرنا .

ومن اليسور ان يمتزج العالم كله فى مجال الحضارة ولكنهما لا يمتزجان فى مجال الثقافة والفكر . وليس معنى هذا ان «الانسانية» لا تستطيع ان تلتقى على وحدة فكر وانما معناه ان فكر الغرب سيظل متميزا لقيمه ومفاهيمه المستمدة من الفكر اليونانى والثقافة الرومانية والمسيحية والمادية وكلها اسس اكيدة لفكر الغرب الحديث لا سبيل الى تخليه عنها بينما يقوم الفكر العربى الاسلامى على اساس ترابط الروح والمادة والتقوى العقل والضمير متمثلة فى اللغة والدين والتاريخ التى تمثل مفاهيم واضحة .

أنور الجندى - القاهرة